السر سعيد شقير باشا

للحياة في ابنائها مآرب . تعدُّ هذا للعلم ، وذاك للفن ، وتهب ذلك للوطن يخوض ميادين السياسة والاقتصاد او معترك النضال والسيوف في سبيله . ولها في تحقيق مآربها اسرار ، نعجز عن اكتناهها او احاطة اللثام عنها ، فنرى الرجال مسوقين في سُبل اذا حاولنا تبيُّن مداها بعقولنا القاصرة ارتدَّ العقل كليلاً عاجزاً . ولكنها سبل تفضي دائماً الى ما تريد ان تحققهُ الحياة بواسطة ابنائها ، ولو شطَّت الصلة بين الطريق في اولها والغرض في نهايتها . والاَّ فكيف يستطيع ان تفهم مثلاً سيرة رجل كنبوليون وُلدَ في اجاشيو وجزيرة كورسيكا لم تكد تخرج من حكم الطليان ومات منفيًّا في جزيرة القديسة هيلانة، بعد ان دوَّخ اوربا وثلَّ عروش ملوكها ونصب لنفسه عرشاً ناطح النجوم . وكيف يستطيع عقل بشريٌّ ان يتبين في السبيل الاول الذي ظرقه الملازم بونابرت ذلك المجد العريض وتلك النهاية المفجعة ؟ ولكنها الحياة ارادت ان تذيع الاركان التي قامت عليها الثورة الفرنسية فساقت نبوليون الى طولون ومنها الى باريس . ثم لما قضت منهُ لبانتها ، وقام هو يمثِّل تلك المبادىء التي نشرها ، خطت لهُ سبيلاً يسير فيهِ من باريس الى واترلو الى جزيرة القديسة هيلانة . والامثلة على ذلك كثيرة قد يتعذر حصرها

ولعلَّ أحدثها في شرقنا العربي يتجلى في سيرة السر سعيد شقير باشا رحمهُ الله . فمن كان يدري ان فتىً شقيريًّا وُلد في بلدة الشويفات اللبنانية في العقد السابع من القرن الماضي ، تسير بهِ الحياة في سبل مختلفة ليس بينها وبين السودان صلة ما ، الى ان تجعل اسمهُ مقترناً بتاريخ السودان الحديث . ثم تدفعهُ في سبيل القاهرة فينال من خديوي مصر وسلطانها الرتب والاوسمة والنياشين ، في طريق لندن فيمثل بين يدي جلالة الملك جورج فيقلده وساماً كبيراً من أوسمة الامبراطورية ولقباً شريفاً من القابها . ولو لم ترده الحياة لذلك لما حدث ذلك الخلاف بينهُ وبين احد تلاميذه في جامعة بيروت الاميركية ـ الشيخ يوسف الخازن — مما حملهُ على ترك التعليم الى الابد ، بعد ان تنبأ لهُ رؤساؤهُ بمستقبل مجيد فيهِ . ولو لم ترده الحياة لذلك ، لما هيَّأت لهُ أن يدرِّس اللغة العربية للسر ملفر مستشار المالية المصرية (لورد ملنر بعدئذٍ) اذ كان يعمل في قلم التحرير في ادارة المقتطف والمقطم . هذه الصلة بين المستشار الانكليزي ومدرِّسهِ الشويفاتي اللبناني مهَّدت لسعيد شقير دخول السودان . وهنالك وقفت الحياة تنظر من علٍ ، الى خلق سعيد شقير ، وذكائهِ ، وهمتهِ ، وجلده ، تتم الباقي ، في خروجه من منصب مترجم في سواكن ، الى مقام الرجل المسيطر على مالية السودان بعد ان نظمها واقامها على اساس متين

وُلِد الفقيد في الشويفات بلبنان من اسرة عرفت في تلك البلاد بنباهة الشأن وكرم المحتد ونبغ منها افراد في الادارة والسياسة والتجارة والادب . والشويفات معروفة على الساحل اللبناني ، بكثرة المدارس والمعاهد وقد تخرّج فيها طائفة من جلة وحاملات لواء الادب والعلم في الاقطار الشرقية . فترعرع في جوّ يحترم فيه العلم ويرفع مقام الادب ، فكان ذلك حافزاً لما انطوى عليه خليقةُ من ملكات كامنة . فلما كبر طلب العلم في جامعة بيروت الاميركية ، وامتاز في عهد الطلب بالذكاء والنشاط وقوة التحصيل ، وبعد ما نال شهادتها النهائية سنة ١٨٨٦ دعي الى التدريس فيها فقضى في ذلك ثلاث سنوات ألّف في خلالها كتاباً في التصرف بالاشتراك مع صديقه يوسف افتيموس وآخر في النحو وترجم ثالثاً عنوانهُ التقدم الذاتي . وقد وصفهُ احد تلاميذه [1] في ذلك العهد وصفاً بليغاً قال فيه :

« عرفت سعيد شقير لما تتلمذت له وهو شاب في مقتبل العمر ومطلع ربيع الحياة تسيل القوة من عطفيه ويسطع الذكاء في عينيه . ويرى الناظر في اساريع وجهه ما ينمّ على عزم صادق يلطف من حدته ثغر باسم وميل فطري الى بهجة الحياة الصحيحة . فما لبثت هذه الاخلاق ان اخذت تقوى وتعتز وتؤتي ثمرها وصاحبها يتدرج في معارج العمل ويرقى في مدارج النجاح والفلاح فيجد في كل منها مجالا متسعاً لمواهبه الكثيرة فلا يزيده النجاح إلا اقداماً ولا يخلق فيه الفوز سوى توطيد العزم على المشي في هذا الطريق بهمة لا تني ورغبة تدفعها القوة ويذكي نارها الشباب

« كان يدرسنا اللغة العربية وقد احبها حبًّا جمًّا ويسعى ليطبعنا بطابعها فلا يطفي عليها تيار اللغات الاجنبية التي كانت تنافسها في الدروس والفصول فينشىء فينا الميل الى محاسنها وارتياد مجاهلها وكشف مزاياها . . ولطالما استوقفنا ساعات في فناء الجامعة في بيروت يطرح علينا الاسئلة في النحو والاعراب ويذكي فينا نار الحماسة لهذه اللغة وقد ضرب فيها بسهم وافر واصاب منها حظًّا كبيراً وله من كتابه الموسوم باسم « طيب العرف في علم الصرف » وما حبّر من رسائل وما ترجم من كتب وما خطب في ذلك الحين وما بعده دلائل على شدة عنايته واتجاه ميله وعاطفته »

وجاء الى مصر في سنة ١٨٨٩ واشتغل اولاً محرراً في ادارة المقتطف والمقطم وكان إذ ذاك المستر الفرد ملنر (لورد ملنر بعدئذ) مستشاراً ماليًّا للحكومة المصرية فطلب من أصحاب المقتطف والمقطم ان يرشدوه الى من يدرّسه اللغة العربية فبعثوا اليه بسعيد شقير فأعجب ملنر بذكائه وسرعة خاطره ومقدرته وكان أول من تنبأ له بمستقبل باهر حافل بالخدمة والاعمال المجيدة

وحدث في أثناء الثورة المهدية بالسودان أن احتفظت الحكومة المصرية بسواكن وسواحل البحر الاحمر وعينت لها محافظاً عسكريًّا فاحتاجت في سنة ١٨٨٩ الى مترجم بارع ليعمل مع المحافظ فأرشدهم ملنر الى سعيد شقير فعيّن مترجماً للمحافظة في أول سبتمبر سنة ١٨٨٩ فتجلّت

(١) خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم في المقطم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٤

مواهبهُ ومقدرته حالاً فرقي الى منصب سكرتير للمحافظة في سنة ١٨٩٢ وأنعم عليهِ بالرتبة الثالثة سنة ١٨٩٢ وبالثانية سنة ١٨٩٧

وكان بين الذين تقلدوا منصب محافظ البحر الأحمر المرحوم اللورد كتشنر (قبل ان يصبح سردار اً للجيش المصري) والسر رجينالد ونجت باشا (قبل ان يصبح مديراً لقسم المخابرات بالجيش المصري) فأعجب كلاهما بهِ واعترفا بذكائه واجتهاده فوسعا سلطته وجعلاهُ المتصرف المطلق بجميع أمور المحافظة ما عدا العسكرية منها . فلما تم فتح السودان واصبح اللورد كتشنر حاكماً عامًّا لهُ تذكر ذلك الموظف النشيط فاستدعاه لمصر وعهد اليه في الاشتراك في تنظيم مالية البلاد ووضعها على اساس ثابت . قال له اللورد كتشنر اني قد استدعيت خبيراً ماليًّا انكليزيًّا اسمه المستر هرمن ليكون سكرتيراً لمالية السودان انما ارغب في ان يكون معه رجل خبير باحوال البلاد فاذا كنت ترى المقدرة في نفسك والكفاءة لذلك فاني اعينك مساعداً له مع العلم بأني سأتكل عليك انت في نجاح العمل واجعلك مسؤولاً مع المستر هرمن عن تنظيم المالية فاذا وفقت الى ما به خير السودان بنيت لنفسك مستقبلاً باهراً والاَّ . . . قال كتشنر : هذه مهمتك فاما ان ترفعك واما ان تضعك ، فهل انت لها ؟ فاجاب سعيد بك انه مستعد ان يضطلع باعباء العمل وانه واثق بالنجاح

وخلف السر رجينالد ونجت اللورد كتشنر كحاكم عام للسودان واستعفى المستر هرمن من مالية السودان فلم يرَ ونجت باشا ضرورة لاستدعاء خبير مالي جديد لاعتماده على سعيد باشا فعين احد الضباط الانجليز (المرحوم السر ادجار برنار باشا) سكرتيراً ماليًّا عالمًا ان الامور ستسير على احسن منوال بمقدرة سعيد باشا وهمتهِ وفعلاً لم تمض بضع سنوات حتى برهن سعيد باشا على نبوغه وكفاءتهِ فنظم ايرادات البلاد الجديدة وضبطها على احسن ما يرام وشهد بذلك كل من كان له اتصال بمالية مصر والسودان . ولما بدأ على تنظيم هذه المالية من دون ملل او كلال متنقلاً بين مصر والخرطوم من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٢ عند ما وجد ان ذهابهُ الى السودان لم يعد ثمت ضروريًّا فبقي مثابراً على عمله بها وهو بفرع المالية في وكالة حكومة السودان بمصر

اما عن نزاهتهِ ونشاطه وثباته على العمل فحدث ولا حرج فانهُ كان اول من يحضر الى دائرة العمل ولا يتركها قبل الساعة الثانية او الثالثة بعد الظهر ثم يعود اليها في نحو الساعة السادسة ولا يغادرها قبل الساعة التاسعة وذلك في ايام العمل العادية اما اذا حان موعد انجاز الميزانية فانهُ كثيراً ما كان يبقى في الديوان الى منتصف الليل او بعده ولم يكن ينقطع عن العمل في يوم عيد او بطالة على الاطلاق. وكان الموظفون يشكون عدم الانتظام في اوقات العمل والراحة وانما كان يحفزهم الى النشاط مشاهدتهم رئيسهم في الطليعة . كما ان عطف سعيد باشا عليهم واهتمامه الدائم بمصلحتهم كانا ينسيانهم ما قد يعانونه من إرهاق في العمل

ولم يكن خافياً على كل من كان له اتصال بحكومة السودان ان جميع المشروعات والتقارير والمذكرات

المالية ذات الشأن بدون استثناء كانت من عمله ولذلك كان رؤساء المصالح والمديرون الانكليز في السودان يتعلون رأساً به في جميع الامور التي كان يهمهم انجازها وكانوا يسعون الى ارضائه بجميع الوسائل فاذا سافر هو او احد افراد اسرته على سكك حديد الحكومة او سفنها كانت تصدر الاوامر من رؤساء هذه المصالح بالاعتناء التام براحتهم . وكان اذا مرض هو او أحد افراد اسرته يبادر رئيس المصلحة الطبية بنفسه الى عيادتهم . وقد حاز بحذقه وباستقامته ونزاهته ومقدرته احترام جميع موظفي حكومة السودان ومحبتهم من انكليز ومصريين ووطنيين . ونال في اثناء خدمته رتبة الممايز في سنة ١٩٠٢ ورتبة الميرميران والباشوية سنة ١٩٠٩ والنيشان المجيدي الثالث سنة ١٩١٣ والنيشان المجيدي الثاني سنة ١٩١٤ ونيشان النيل الثاني سنة ١٩١٧

وكان التقيد مصطافاً في لبنان سنة ١٩١٣ فدعاه متصرف لبنان يوسف قيومجيان باشا الى بيت الدين وطلب اليه ان ينظر في ميزانية لبنان ويضع له تقريراً عنها ، فنزل هو وقرينته الفاضلة ضيفين على المتصرف في سراي الحكومة اياماً تفرغ فيها سعيد باشا للبحث في الموضوع ووضع تقريراً نفيساً فيها . وندب في سنة ١٩١٩ لمراقبة مالية حكومة المرحوم الملك فيصل لان وزارة الحربية الانكليزية في ذلك العهد أمدّت الملك فيصل بمبالغ جسيمة من المال لتساعده على استقرار حكمه في سوريا ولم تجد من يقوم بمهمة مراقبة المصروفات وتنظيمها افضل من سعيد باشا . ولما احيل على المعاش سنة ١٩٢١ انعم عليه بنيشان الامبراطورية البريطانية من درجة فارس مع لقب سر

ورغبت حكومة السودان في الانتفاع بخبرته فجعلته مستشاراً لها بمصر فقضى في القيام بعمله الى اليوم الذي أصيب فيه بالضربة القاضية التي اودت بحياته الثمينة خمسة ايام بعد ذلك (١)

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة علمية ادبية وقد ظلّ الى آخر حياته الحافلة كلفاً بالادب والشعر واللغة ، حريصاً على الدرس والمطالعة يحفظ من جيد الشعر طائفة من خير ما جادت به قرائح الشعراء المتقدمين والمتأخرين وكان المتنبي اقربهم الى نفسه . وما برح يشجيه الشعر العربي كما يطربه الغناء الشرقي مع انهُ الف العيش في الاوساط الغربية بحكم عمله وصلاته

وقد قرن الصحافة الى الادب فاشتغل في تحرير المقتطف والمقطم قبل انتظامه في خدمة حكومة السودان بسواكن ، وفي اثناء اقامته بسواكن كان يكاتب شركة روتر فيوافيها باخبار الثورة المهدية ، وكان اول من بشّر الى اوربا خبر انتصار الاحباش على الجيش الايطالي في معركة عدوة الشهيرة . فذاع الخبر في اوربا قبل ان يبلغ الحكومة الايطالية رسميًّا ، فاستاءت حكومة ايطاليا وارسلت تطلب من حكومة انكلترا ان تنشر شركة روتر تكذيباً لما نشرتهُ . ولكن في اليوم نفسه ورد على الحكومة الايطالية خبر الهزيمة ، فكان في ذلك الحادث الصحافي مفخرة لروتر ولمكاتبه بسواكن اما بصره في الادب العربي فكان بصر العالم المصقول الطبع النافذ النظر القوي الحجة . وكثيراً

(١) معظم الحقائق عن عمل سعيد باشا في السودان مبني على مذكرة اعدها صاحب العزة صموئيل بك عطية

ما كان يطلب الى كاتب هذه السطور ان يقرأ له شيئاً مما يكتب. فكان يقف في القيشة بعد الغيبة ويقول اظن ان صحة هذا اللفظ كذا وينهض من ساعته الى المعجمات في خزائنه العامرة يراجع مطولاتها، وقد كان دائماً في جانب الصواب. ومما يشهد له بقرب البصر في الادب ان المغفور له شوقي بك كان قد بعث الى المقتطف في ديسمبر سنة ١٩٢٣ بقصيدته الفلسفية البديعة في «النفس» معارضاً فيها قصيدة ابن سينا التي مطلعها «هبطت اليك من المكان الارفع» فقرأ المرحوم الدكتور صروف القصيدة معجباً بمعانيها الفلسفية وصورها الشعرية، ولما عاد ذات يوم الى داره لتناول الغداء اخذ تجربتها معه «ليريها لسعيد». وبعد تناول الغداء صعد الى «بيت سعيد» وراجعا القصيدة معاً معجبين بها كل الاعجاب. الا انهما ما كادا يصلان الى البيت الذي يقول فيه شوقي

ما بال احمد عيّ عنك بيانهُ بل ما لعيسى لا يقول ويدّعي

حتى توقف سعيد باشا وقال هذا لا يستقيم معنىً لان المقصود نفي القول والادعاء معاً عن عيسى، وهنا يفهم انهُ لا يقول ولكنهُ يدّعي. فاضطرب الدكتور صروف وقال ما العمل الملزمة في المطبعة والوقت ضيق ما العمل لتصحيح الشطر؟ فتناول سعيد باشا التلفون وخاطب شوقي بك في داره مبيناً له رأيهُ فوافق شوقي بك عليهِ وقال بحضور ذهن عجيب: طيب ياسيدي «قول كده»

ما بال احمد عيٌّ عنكِ بيانهُ بل ما لعيسى لم يقُلْ او يدّعي

وهذا هو النصُّ الذي ظهر بهِ البيت في القصيدة في الصفحة السادسة من مقتطف يناير سنة ١٩٢٤

ولهُ قصيدة عصماء في الانقلاب الدستوري الذي وقع في تركيا سنة ١٩٠٨. فقد كان سعيد باشا من الذين تحمسوا لاعمال جمعية الاتحاد والترقي لانهُ اعتقد حينئذٍ ان عهد الظلم في سوريا قد انقضى وقام على انقاضهِ عهد نورٍ ومساواة، ولما احتفل اللبنانيون بالانقلاب احتفالاً عظيماً في عاليه في صيف تلك السنة نظم هذه القصيدة السياسية فكان لها وقع عظيم في النفوس ومما قاله فيها

اذا دعا الموت فرداً هبَّ كلهم حتى كأن المنايا الكأس والحببُ
ظنَّ الطغاة سكوناً منهمُ جزعاً لكنهم سكنوا حيناً لكي يثبوا
ما قدّموا حذراً او ردَّهم خطرٌ وان يكن في جبين الليث ما طلبوا
ولا اشترتهم وعود ملؤها ذهبٌ ولا تنالم وعيد ملؤهُ الغضبُ
ولا استمالهمُ مجدٌ يكون بهِ ظلم العباد ولا غرّتهم الرتبُ
قالوا وقد شهروا الصمصام واندفعوا كالرعد يقصف في احشائهِ اللهبُ
للشعب حقٌّ اتينا اليوم نطلبهُ اما نذوق الرّدى او يصدق الطلبُ
عشنا بعصر عجيبٌ ان يعاش بهِ لو لم نعش فيهِ قلنا انهُ كذبُ
فالجرُّ مضطهد والامن مضطربٌ والعرض منتهكٌ والرزق منتهبُ
فاستلَّ سيفاً نيازي كلُّهُ لهب وقال انور قولاً دونهُ الذهبُ

الدين لله دينوا كيف شاكم أما لدين هوى الاوطان فاعتصموا
هذي يدي انا والله اخوتكم وليس يفرقنا دينٌ ولا نسبُ

وقد كان في السنوات الاخيرة يعدُّ المعدّات لشرح ديوان أبي تمام ، ووضع جدول وافٍ بالالفاظ العربية التي استعملت لاغراض جديدة وبيان تطور استعمالها قديماً وحديثاً وتقديمه الى المجمع الملكي للغة العربية. وكان شوقي وفوزي المعلوف أحبّ الشعراء المحدثين اليه . ثم انهُ علاوة على عنايته بالادب العربي، كان يعنى عناية خاصة بالزجل اللبناني ولهُ فيه «مطالع» جيدة، نذكر ما علق بالذاكرة من احدها

يا جفن عيني ليش هالبس مدمعك ويا قلب مالك في خفوق شو بيرجعك
اوعى تكون وقعت في نار الغرام علي بأنك تبت شو عاد وقّعك

اوعى تكون وقعت في نار الغرام قلنيت إنّا نور ما فيها ضرام
ورحت حايم حولها حوم الهوام تحمين نسيت قديش كانت تلذعك

تحمين نسيت يا قلب شو قضّيت سقام تا وقعت وقعه ما بقاش منها قيام
مش كل مرة ترجع الجرّه بسلام وخايف بها المرة تلاقي مصرعك

من مرحي شو بيمنعك تا تنطفي نارِي وعيني من البكا ما تكتفي
ان كان قلبي بحفظو تا تكون فيهِ وان كان عيني بصونها تا تقنعك

ان كان عيني بريدها تا تشوف سناك هي وقلبي وكل شيء علك فداك
انت ماشي وما بهمك في سماك ونفسي على كبرا ذليلة بتتبعك

نفسي على كبرا السبب في ها النفسل حطت بوكدا البدر كيف بدّا تصل
واللي جعل ها الحب شو بيعمل عمل خليه يجي ويشوف شو صار لي معك

خليه يجي ويشوف شو قضيت عذاب ما نالني في محبتك الاّ التعب
وفي اللي بقي في العمر لي عندك طلب انك تحبني بس مرّة تا تقنعك

ولم يحل انهماكه باعماله الرسمية دون الاتصال والالتفات الى كل ما يهم الجالية السورية في مصر والسودان . فكان رئيس شرف للنادي السوري في الخرطوم في خلال اقامته بالسودان . ولما مرّ المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق في الخرطوم سنة ١٩١١ الف وفداً من كبار السوريين فقابلوا المستر روزفلت في قصر الحاكم العام وقدّم له خطاباً شكر فيهِ بلسان السوريين حكومة الولايات وشعبها لما يلقاه السوريون هناك من الحرية والرعاية . وكان رئيساً للنادي الشرقي في القاهرة وأميناً عامّاً لصندوق جمعية متخرجي الجامعة الأميركية ببيروت . ولهُ في الجمعيات والاندية خطب كثيرة جمعت الى الملكة الاجتماعية البلاغة الادبية وحسن المحاضرة . رحمة الله عليهِ